الفصل الرابع

# وَلَسْتُ بِخَيْرِكُم ..

هذا الرجل العظيم المتفوِّق .

كيف عاش حياته كحاكم ، ومَارَسَ دوره كخليفة ..؟

هذا الذى وُلد سيداً ، وعاش سيِّداً ..

هذا الذى لم تُفْلِت منه مَزيّة ، ولم تغِبْ عنه فضيلة ..

هذا الذى أنقذ الإسلام من خطر محقق ، وردَّ إليه حياته وثَباته ..

هذا الذى بدأت أبراج كسرى وقيصر تتساقط تحت قدميه ، والعالم القديم كله يتداعى بين يديه ..

هل غيَّرت الخلافة من جوهر نفسه أو من أسلوب حياته ..؟

هل نَسِيَ تواضُعَه ، وفضائله فى زَحْمة انتصاراته ..؟!

هل عاش خليفة – فوق – الناس ..؟

أم ظَلَّ واحداً – بَيْن – الناس ..؟

لنقف فى رحابه لنرى ..

ولنبدأ باللحظات الأولى من خلافته .

هاهوذا ينقل خُطاه فى حياء ووَجل ، مُيَمِّماً وجهه شطر منبر رسول الله .

هذا المنبر الذى طالما نادى النبىُّ المسلمين من فوقه ، ودعاهم إلى الهدى ودين الحق . ! !

هاهوذا أبو بكر ، يصعده لأول مرة ، بعد أن غاب عنه فَيْصَلُهُ ورُبَّانه ..

وإنه ليصعد درجتين ثم يجلس ، فهو لا يبيح لنفسه أن يصعد كل الدَّرَج ، وكل المُرْتَقَى ... ! !

لا يُبيح لنفسه أن يجلس حيث كان الرسول يجلس ..

وهاهوذا يستقبل الجمع الحاشد يتلو على الناس مَوْثِقَهُ وعهده :

« أيها الناس ..

« إنى وُلِّيتُ عليكم ، ولَستُ بخيركم ..

« إن أحْسَنْتُ فأعينونى ..

« وإن أسأتُ فقوِّمونى ..

« ألا إن الضعيف فيكم قويٌ عندى ، حتى آخذ الحقَّ له ..

« ألاَ وإن القويَّ فيكم ضعيف عندى حتى آخذَ الحق منه ..

« أطيعونى ما أطعتُ الله ورسوله ..

« فإذا عصيتُ فلا طاعة لى عليكم » .. ! ! !

ألا إنه على كثرة ما وَعَى التاريخ من مواثيق وخُطب استهلَّ بها الحكام عهود حكمهم ، لا نجد ، ولن نجد قط مثل هذه الحكمة ، وهذا القِسْطاس ! !

ولقد زاد الموقف روعة وعظمة أن سُلوك صاحبه لم يَنِدَّ عنه لحظة ، ولم يَعْزُب عنه قِيد شَعْرة .. ! !

لقد كان أبو بكر بهذه الكلمات المعجزات ، يضع فى إطار من الذِّمة والصدق مسئوليات الحاكم الأمين ، ويكشف عن جوهر كل حكومة صالحة ..

« إنى وُلِّيتُ عليكم ولَسْتُ بخيركم » .

بالله ما أروعها من بداية ... ! !

فهو يريد أن ينزع من صدور الناس أىَّ وهم يجعلهم يضعون الحاكم فوق قَدْرِه ومكانه ..

يريد أن يَقِرَّ فى أفئدتهم أن الحكم ليس مزيَّة ولا امتيازاً .

إنما هو خدمة عامة فى أكثر مستويات هذه الخدمة مَشَقَّة ومسئولية وشظفاً ..

إنه بهذه الكلمات الوضاءِ يُقرِّرُ :

أن الحُكم وظيفة لا استعلاء ..

وزمالة ، لا كبرياء ..

ويقرر أن الحاكم « فرد » فى الأُمَّة ..

وليسَ « الأُمَّةَ » فى فرد ..

« إنى وُلِّيتُ عليكم ، ولَسْتُ بخيركم » .

أجَـــل ..

إنه ليس بخيرهم لأنه حاكم ..

ولكنه خيرُهم ، لأنه حكيم .. لأنه الصِّدِّيق الذى توفَّر له من الصدق ، ومن الايمان ، ومن الأمانة ، ومن الرُّشد ما جعله ثانىَ اثْنَيْن ..

ومَن أجْدَرُ منه بهذه الكلمات ..؟

مَنْ أحقُّ مِنْ أبى بكر وأوْلَى بهذا الموقف .. موقف الحاكم الذى يدرك تماماً أنه لَن يكون عظيماً إلا بقدر ما تكون أمته عظيمة ..

ولن يكون حُرًّا إلا بقدر ما تكون أمته حُرَّة ..

ولن يكون عزيزاً ، إلا بقدر ما تكون أمته عزيزة ..

ولَن يكون آمناً إلا بقدر ما يكون شعبُه آمناً ..

وسبيل ذلك عنده أن يملأ الشعبُ مكانَه ؛ ويدرك أنه الضَّمان الأوحد لكل ما يرجى للوطن وللحاكم من خير وعدْل وسَدَاد .. ! !

« لَسْتُ بخيركم ...

« فإن أحسنتُ فأعينونى » .

« وإن أسأتُ فقوِّمونى » ! !

وهذه هى وظيفة الشعب عند أبى بكر .

وهذا هو جوهر علاقته بحاكمه .

أن يكون عوناً له على نفسه وعلى مسئولياته .

وذلك لا يتم إلا بأن يقف منه موقف الشريك البصير لا موقف التّابع الضرير ..

يُعينه إذا أحسن ..

ويُقَوِّمه إذا أساء ..

ثم ينتقل أبو بكر فى خطابه وميثاقه إلى سيادة القانون فيعلنُها ، ويؤكد إصراره عليها ..

« الضعيف فيكم قوى ، حتى آخذ الحق له ..

« والقوى فيكم ضعيف ، حتى آخذ الحق منه ..

« أطيعونى ما أطعت الله ورسوله ..

« فإذا عصيتُ ، فلا طاعةَ لى عليكم .. ! ! » .

* * *

أىُّ صدق .. وأية رَوْعة ..؟؟!

رجل له كل هذه المزايا وسْط هذه الجماعة المؤمنة ، ثم يبدأ خلافته داعياً الناس فى إصرار عظيم كى يأخذوا مكانهم إلى جواره .. لهم الحقوق نفسها ،

وعليهم الواجبات نفسها .. !

أجل .. لقد كان عظيماً – أيَّ عظيم – وهو يُعَلِّم الناس بقوله وبسلوكه أنه لا يَفْضُلُهُم فى شيء ، وأنه فى حاجة دائمة ومُلِحَّة إلى ما معَهم من فضل ، ومن رأى ، ومن اعتداد بالنفس ، وصلابة فى الحق ..

* * *

ولقد تقبل الخليفة منصب الخلافة ، غير راغب فيه ، ولا حريص عليه..

ولولا أنها التبعات الفاصلة فى الأيام الحاسمة لَأَوَى إلى رُكْن بعيد ، ولهَرَبَ من ذلك الذى يُسارع الناس إليه ويتهالكُون عليه ..

لقد كان صادقاً حين قال :

– « والله ما كنتُ حريصاً على الإمارة يوماً ولا ليلة .. ولَا سألْتُها الله فى سرٍّ ولا علانية » ..

أجل .. لم يكن عليها حريصاً .

ولولا أن يكون بتَخلِّيه عنها قد هرب من مسئوليات دينه وإيمانه لاتَّخَذَ سبيله إلى الفرار سَرَباً .. ! !

ولقد حاول ذلك فعلاً بعد أن فرغ مِن قمْع فتنة المرتدين .

فذات يوم دخل عليه عمر رضى الله عنه داره ، فألْفاهُ يبكى .

وما كاد يبصر عمر أمامه حتى تشبَّث به كأنه زورق نجاة وقال له :

– « ياعمر ، لا حاجة لى فى إمارتكم .. » .

ولم يتركه « عمر » يُتِمُّ حديثه ، فقَد بادَرَه قائلاً :

– « إلى أين المفر ..؟ والله لا نُقيلك ، ولا نستقيلك » .. ! !

* * *

والآن ، لنقترب من بعض تلك المشاهد . . حيث يضع الخليفة

موضع التنفيذ ، خِطابَه الذى أعلنه يوم بيعته .

لِنَقْترب ولْنر هذا الابن المبا رَك العظيم . . لا للإسلام وحده . . بل للحياة كلها . .

لِنُبصر هذا الحاكم الهاطل يملأ حياة الناس عافية ، ورحمة ، وروعة وأَمْناً .

لقد كتِب عليه أن يبدأ عهد خلافته بواقعة امْتُحِن فيها ولاؤه للقانون وللحق امتحاناً عظيماً .

ذلك أن السيدة فاطمة بنت رسول الله ، والعباس عمّ رسول الله ، ذهبا إليه يسألانه حقهما فى قطعة أرض صغيرة كان الرسول قد أصابها فى بعض الفىء . وكان عليه السلام يعطى السيدة فاطمة وبعض أهله جزءًا من نتاجها ، ثم يقسم الباقى بين فقراء أصحابه .

والآن ، بعد وفاته – عليه السلام – ذهبت فاطمة رضى الله عنها إلى خليفة الرسول تسأله هذه القطعة من الأرض باعتبارها ميراث أبيها عليه السلام .

قال أبو بكر لها وللعباس :

– « سمعتُ رسول الله صلى الله عليه وسلّم يقول : [ نحن مَعاشِرَ الأنبياء لا نُورّث ، ماتركْناهُ صَدَقة ] وإنى واللهِ لا أدَعُ أمراً رأيتُ رسول الله يصنعه إلاّ صنَعتُه ؛ فإنى أخشى إن تركْتُ شيئاً من أمره أن أَزيغ » .

إن أبا بكر يعلم أن أَوْلى الناس بالرعاية – فى الحق – هى بنت رسول الله .

ويعلم كم كان الرسول يُحبُّها ويُؤْثِرُها .

ويعلم مَدَى حاجَتِها وزوجها وأولادها إلى هذه القطعة الصغيرة من الأرض .

وأبو بكر يؤثر أن يركب الصَّعب فى غبطة ، على أن يقول لابنة الرسول لا . .

ومع هذا ؟ فقد قالها . . ! !

إنه حين آمن بالرسول وبدينه وشرْعَته صارت هذه الشِّرْعَةُ قانوناً . .

وإيمانُه بالقانون لا ينفصل عن إيمانه بالله ورسوله . .

ولقد قال الرسول : نحن معاشِرَ الأنبياء لا نُورَث .

إذن ، فقد صار حكماً من أحكام الشريعة التى يؤمن بها ألا يُورَث نبىّ .

وهكذا وجد نفسه بين وَلاءَيْن :

وَلائِه لرسول الله فى أحب الناس إليه ، وهى ابْنته . .

وولائه للقانون الذى جاء به رسول الله نفسه .

ولم يكن له أن يتردَّد . .

فهو رجل لايحمل إيمان العوام . . بل إيمان العبَاقرة . .

الإيمان الذى لا تَثْنى عزيمتَه قُرْبَى أو مُجامَلة . .

ولم تكد السيدة فاطمة رضى الله عنها تسمع جواب أبى بكر عن مسألتها حتى اكْتَسى وجهها بالأسى والألَم .

والصِّدِّيق يعلم أنها أسرع الناس إلى طاعة رسول الله ، وأنها لا تخالف قط عن أمره . . ولكن قد يُخامرها الشك فى أن الرسول قد قال هذا الحديث ، وشرع هذا الحُكْم . .

ومن ثَمَّ أرسل إلى عمر ، وطَلْحة ، والزُّبَيْر ، وسعد بن أبى وقَّاص . وعبدالرحمن بن عوْف ، وسألهم أمامها :

« نشَدْتُكم بالذى تقوم السماء والأرض بأمره ، ألَم تعلموا أن رسول الله قال : نحن لا نُورَث ، ماتركْناه صَدَقة » ؟ ؟

وأدْلَتْ فاطمة بحجة جديدة فقالت للخليفة ! إنك تعلم أن الرسول كان قد وهبها لى فى حياته ، فهى لى إذن بحق الهِبَة ، لابحق الإرْث . .

قال أبو بكر ! أجَلْ، أعلم . . ولكنى رأيته يَقسمها بين الفقراء والمساكين وابن السبيل بعد أن يعطيكم منها مايكفيكم . . وإذن فقد أراد أن يكون فيها حق دائم للفقراء .

قالت فاطِمة : دَعْها تكن فى أيدينا ، ونَجرْى فيها على ماكانت تَجرْى عليه وهى فى يد رسول الله .

قال أبوبكر : لستُ أرى ذلك ، فأنا وَلِىّ المؤمنين من بعد رسولهم ، وأنا أحق بذلك منكما – أضعُها فى الموضع الذى كان النبى يضعها فيه . . . . . ! !

فى هذه الواقعة التى واجَهَت الصِّدِّيق فى بداية حُكْمه اجتاز إيمانه بالحق وبالقانون امتحاناً لا يُدرِك رَهْبَته ومشقته أحد سوى أبى بكر .

ولقد أصاب فى هذا الامتحان ظفراً عظيماً . . ! !

* * *

واحترام أبى بكر للقانون لاينفصل عن احترامه للذين يحملون معه مسئولية رعايته .

فيوم خرج يُودِّع أُسامة وقد سبَق الحديثُ عنه ، كان بين جنود هذا الجيش ، عمر بن الخطاب .

وكان أبوبكر حريصاً على أن يبقى عمر بجواره فى المدينة ولقد كان يستطيع كخليفة للمسلمين أن يستبقيه بقرار ينفرد بإصداره ، لكنه يعلم أن فى هذا التصرُّف افْتياتاً على موظف مسئول ، يجب أن تتوفَّر له الضَّمانات التى تُمَكِّنه من أداء واجبه وممارسة وظيفته .

وأُولَى هذه الضَّمانات ألا تَنْتقِصَ سُلْطة مَّا شيئاً من حقوقه حتى لو تكون سلطة الخليفة نفسه .

وهكذا ، اقترب الخليفة من قائد الجيش « أسامة » ، وقال له فى همس ورجاء .

— « إذا رأيتَ أن تترك لى عمر بن الخطاب ، فإنى أجدُ فى بقائه معى خيراً ونفعاً » . . ؟ ؟

وبادر أسامة بالرضا والمُوافقة .

إن أبا بكر لم يفعل ذلك مُجاملة ، أو تواضعاً .

إنما فعله واجباً . .

ولو قال أسامة ساعَتَئِذ : لا . ، ماوَسِع الخليفة أن يخالِفَ أو يَفْتات .

ومَن شاء أن يرى جَلال الحُكم ، وعَظَمة الحاكم ، فلينظر أبا بكر غَدَاةَ اسْتِخلافه .

إذ خرج من داره حاملاً على كتفيه لُفافة كبيرة من الثياب .

وفى الطريق يلقاه عمر بن الخطاب وأبو عُبيدة بن الجرّاح فيسألانه :

— إلى أين ياخليفة رسول الله . . ؟ ؟

فيجيبهما : إلى السُّوق . .

قال : عمر ! وماذا تصنع بالسوق ، وقد وُلِّيت أمرَ المسلمين . . ؟ ؟

قال : أبوبكر : فمن أين أُطعم عِيالى . . ؟

لم يُدخل مَنصب الخلافة على النفس الكبيرة أىَّ زَهْو ، ولم يُحرِّك لها رغبة — أيَّة رَغبـــة — فى تغيير أسلوب الحياة .

قال له عمر : انطلق معنا نَفرضْ لك شيئاً من بيت المال .

وصحبهما الخليفة إلى المسجد حيث نُودِىَ أصحاب الرسول ، وعرض

عليهم عمر رأيه فى أن يفرض للخليفة « بدل تفرغ » . .

وفعلاً – فرَضوا له كَفافاً . . بعض شاة كل يوم ومائتا دينار وخمسين فى العام . . ثم زيدت بعد ذلك إلى شاة فى اليوم وثلثمائة دينار فى العام .

وعاش أبوبكر بهذا هو وأسْرته الكبيرة ، حتى بعد أن فُتح للمسلمين أبواب الرزق والرَّغَد ، وبدأت خيرات الشام والعراق تَفِدُ إلى المدينة .

ولم يكن الصِّدِّيق يلتزم القناعة لمجرد الزّهد ، بل كانت قناعتهُ جزءاً من فلسفته .

فهو يقدس اللقمة الحلال ويحاذِرُ أن يدخل جوفه كِسْرة فيها شبهة . .

وهو يرى أن الحلال ليس من الكثرة بحيث يتَّسع للإسراف .

فإذا وُجد سَرَف ، أو تَرف . فاعلم أنّ ثمَّة سُبُلاً للعيش غير مَشروعة . .

وإن خليفة « محمد » لَيُؤثِرُ أن يَشدَّ على بطنه حَجرين من المسْغَبة كما فعل مُعلِّمه ورسوله ، على أن يُدخِل أمعاءه لُقمة فيها شُبْهة . .

يحدثنا الإمام البُخارى فى صحيحه أنه كان لخليفة رسول الله غلام جاءه يوماً بشىء فأكل منه ، ولما فرغ من أكله قال له الغلام : أتدرى ماهذا ياخليفة رسول الله . .؟

قال أبوبكر : ماهو . . ؟

قال الغلام : إنى كنتُ قد تكهَّنْتُ لرجل فى الجاهلية ، وما أُحسِن الكهانة إلا أنى خدَعْته . . وقد لَقِيَنِى اليوم فأعطانى ، فهذا الذى أكَلْتَ منه . .

« فأدخل أبوبكر يده فى فمه حتى قَاءَ كل شىء فى جوفه » . .

– ويُضيف صاحب الصَّفوة إلى ذلك أنه قيل لأبى بكر :

« يرحمك الله . . كُلُّ هذا من أجل لقمة واحدة . . ؟ ! ! !

فأجاب قائلاً :

– « والله لو لم تخرج إلاَّ مع نَفْسى لأخرجْتُها . . سمعتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : كل جَسد نبَت من سُحْت فالنارُ أوْلى به ، فخشيت أن يَنْبُتَ شيء من جسَدى من هذه اللُّقمة » . . ! ! !

. * * *

كان إصراره عظيماً على ألا ينال من بيت المال إلا مايكفيه وأهله بالمعروف .

وما نال من المال وهو خليفة ، ولا نال من منَاعم الحياة إلا ما كان يأكل وأهله من جَريش الطعام . . وإلاَّ ما كانوا يلبسون من خَشنِ الثياب . . . ! !

وبرغم هذا كله ، فحين أدركه الموت دَعا إليه ابنته عائشة رضى الله عنها وقال لها :

– انظرى مازاد فى مال أبى بكر مُنذ وَلِىَ هذا الأمر فَرُدِّيه على المسلمين .

وكانت روحه الطاهرة تتحرك صاعدة إلى بارئها وهو يردد هذه الكلمات..

تُرى ماذا كان هناك حتى يشغَل بال أبى بكر إلى هذا المدَى . . ؟

ماذا ادَّخر فى أيام خلافته من ثَراء يخاف أن يلقى به ربَّه . . ؟ ؟ !

انظروا . .

إن عائشة حملت تركة أبيها فَور وفاته ، وفَوْر مبايعة عمر . حَمَلَتْها إلى أمير المؤمنين تنفيذاً لِوَصَاة أبيها، فما كاد عمر يرى ويسمع حتى انفجر باكياً ، وقال :

– « يرحم الله أبا بكر . . لقد أتعبَ كل الذين يجيئون بعده ». . ! !

يعنى بهذا أن الصدِّيق بسلوكه ووَرَعه قد سنَّ نَهْجاً تنَاهى فى العظمة .

بحيث يُضْنِي بلوغُه ومُضاهاتُه كلَّ خليفة يأتى على أثره .

لماذا انفجر عمر باكياً حين نُثِرت أمامه ثروة أبى بكر . . ؟

لقد كان أمراً غير معقول . . هذه التركة التى خلَّفها الرجل الذى افْتدى الإسلام بماله . . والخليفة الذى بدأت تنثال فى أيامه خيْرات الشام والعراق . .

هاهو ذا ، الميراث الذى خلَّفه أبوبكر . والذى أصرَّ على أن يُردَّ إلى بيت المال .

* بَعير ، كان يستقى عليه الماء . . ! !
* ومِحْلَب ، كان يحلب فيه اللبَن . . ! !
* وعَباءة ، كان يستقبل فيها الوفود . . ! !

* * *

هذا هو الإنسان الكبير البارُّ الذى جعل شعار حياته ، وشعارَ حُكمه :

- « لَسْتُ بخيركم » . . ! !

وإنه لايردد هذا الشعار تواضُعاً ، بل يُعبِّر به عن جوهره ويُضمِّنُهُ أسمى مبادئ سُلوكه . .

فهو – حقًّا – لايرى نفسه خيراً من أحد .

* لقد أنزل الله فيه قرآناً فقال : « إِلاَّ تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ، ثَانِيَ اثْنَيْنِ ، إِذْ هُمَا فِى الْغَارِ » . .

* ولقد كان قبل الإسلام واحداً من أعلام قريش وسادتها . .

* ولقد أخذ مكانه ، فى الإسلام من أول لحظة إلى جوار رسول الله فلم يتقدم عليه أحد . .

* ولقد أسلم وهو فى أوج ثرائه ، فلم يدَّخر لنفسه ولا لأهله درهماً .

وبذل فى سبيل الله كل ثروته - يحرِّر الأرِقَّاء ، ويُطعم الطعام على حُبِّه مسكيناً ، ويتيماً ، وأسيراً . .

* ولقد بلغ من إعزاز الرسول له أن أمر بإيصاد جميع الأبواب التى كانت تُفتَح على المسجد ، إلا باباً واحداً أمر أن يبقى . . هو باب أبى بكر . .

* ولم يكن الرسول يغضب لنفسه قط . . لكنه لم يكن يصبر على أية إساءة طفيفة تُوجَه إلى أبى بكر .

* ولقد استخلفه الرسول عليه الصلاة والسلام على الصلاة ، وأصَرَّ على استخلافه . .

* ولقد بايَعه المسلمون بعد النبى خليفة لهم وإماماً . .

* ولقد تحدَّته فتنةُ الردَّة تحدِّياً رهيباً ، فنصره الله عليها نصراً مؤزَّرًا . .

* ولقد رأى أبراج الروم والفرس تتداعَى تحت سنَابك خيله ، وأقدامِ جُنده ، ورأى العالم القديم كله يبدأ رحلة فَنائه تحت خَفْق راياته الظَّافِرة . .

كل هذا ولم تتسلَّل إلى نفسه همسة بأنه خير من أحد . . ! !

بل كان دوماً ، يُمسك قلبه بيمينه ، ويجأر بدعاء رسول الله .

- « يامُقلِّب القلوب ، ثبِّت قلبى على دينك » . .

إنه وهو صاحب هذا الإيمان الذى يكفى أهل الأرض جميعاً ، يخاف على قلبه أن يَزيغ . .

ويقول وهو يبكى : « يالَيتنى كُنت شجرة تُعْضَد » . . . ! !

فإذا ذُكِّر بمقَامه عند الله أجاب :

- « والله لا آمَنُ لمكر الله ، ولو كانت إحدى قدَمىَّ فى الجنة » . .

مِن هنا ، كان قوله « لستُ بخيركم » تعبيراً أميناً عن طبيعته ، وفقهه .

ومن هنا كان نَأْيه الشديد عن كل مظاهر الزَّهْو والاستعلاء .

* * *

ولقد حقَّق « الصِّدِّيق » هذا المبدأ تحقيقاً جعل حياته العظيمة نسيج وحدها .

« فهو يوم كان يملك ثراء عريضاً ، سأل نفسه : لماذا ينعم بهذا الثراء والمسلمون فى فاقة . . ؟ ؟

هل هو خير منهم . . ؟

وأجاب نفسه قائلاً : لا ، لستُ خيراً منهم . . واذن فلْنكن فى هذه النَّعماء سواء . . .

وهكذا أفْرض اللهَ كل ماله ، حتى لقد سأله الرسول يوماً « ماذا أبقيتَ لأهلِك يا أبا بكر » . . ؟ ؟

فأجاب : « أبقيْتُ لهم الله ورسوله » . . ! !

وهو حين صار خليفة للمسلمين وحين فتح الله عليهم من الرزق والخير مايسمح له بأن يعيش فى رغَد وسَعَة ، رفَض أن يتقاضى من بيت المـال أكثر ممـا تتطلبه ضرورات العيش ، وأكثر ممـا ينـالُ أى بيت من بيوت المسلمين يضم من الأنفُس ماتضمُّه أسرة أبى بكر .

« ولقد سأل نفسه : لماذا يأخذ أكثر مما يستحق . . ؟

هل هو خير من الآخرين حتى يختص نفسه بمزيد . . ؟

وأجاب نفسَه بأنه ليس خيراً من أحد . . وإذن فَلْيَعِش فى مُستوى المُواطن العادى فى أمته وجماعته ، مع أنه يوم كان يعيش من ماله ومن تجارته كان مُستوى معيشته عند مُسْتَوى دَخْله . . رغَدٌ كثير ونَفقة واسِعَة . .

فلما وَلِىَ أمر الناس دَحَض كل ما من شأنه أن يخصَّه بامتياز – أىَ

امتياز . . وردَّ جميل الذين اختاروه خليفة عليهم بأن فرض على نفسه مساواة كاملة بهم ، وجُهْداً مضْنياً فى سبيلهم . .

وإنَّ عظمة أبى بكر ، ومن بعده فى هذا ، الفاروق عمر ، لَتتمثَّل أكثر ما تتمثَّل فى أنهما سلَكا ذلك المسلَك النادر المثال ، وهما متربعان فوق كرسى الخلافة .

وأين . . ؟ ؟

فى أمَّة جديدة . . جديدة بكل معانى الكلمة ، تقرع أبواب العالَم ، ويُعانق النَّصر راياتها فى كل مكان . . . ! !

وقد كان لابد لحكام أمة هذا شأنها ، أن يستحوذ عليهم قدْر من الزَّهو ، ومن الاستمتاع بالحياة مهما يكن زهدُهم ووَرعُهم ! ! . .

لكن شيئاً من هذا لم يحدث أبداً ، بل حدث النقيض .

فعاش « أبوبكر » مع دموعه الخاشعة ، يردد عبارته المأثورة :

« ياليتنى كنت شجرة تُعضَد » . . ! !

وعاش « عمر » مع دموعه الخاشعة ، يردد عبارته المأثورة .

« ياليت أُمَّ عمر لم تَلِد عمر » . ! !

وكانا ينثُران على الناس أسلابَ كسرى وقيصر ، وهما يسيران فى ثوبين ازدحمتْ فيهما الرِّقاع . . ! ! !

وإذا مات « أبوبكر » الخليفة عن بعير ، ومحلب ، وعباءة ، أصَرَّ على أن تُرَدَّ إلى بيت المال .

ياسكَّان هذا الكوكب الذى نعيش فوقه . . .

هل عندكم لهذه النماذج الطاهرة نظير . . ؟ ؟

ألا إنها مَدرسة القرآن . .

ألا إنها مدرسة محمد . . عليه أفضل الصلاة وأزكى السلام . . ! !

* * *

إن هذه العبارة الحافلة : « لَستُ بخيركم » . . تُصَوِّرُ لنا جوهر الشخصية الفريدة التى كَانَها أبوبكر الصدِّيق .

فهو مُنذُ أسلم ، وقبل أن يكون خليفة يضع نفسه من الناس فى موضعٍ سَواء . . .

ولْنُصْغ الآن لـ « رَبيعة الأسلمى » صاحب رسول الله .

« كان بينى وبين أبى بكر كلام ، فقال لى كلمة كرهتها ، ثم ندم عليها ، وقال لى : ياربيعة ، رُدَّ على مثلها حتى تكون قصاصاً . .

قلت : لا أفعل . .

« فقال لى : لتأخذنَّ بحقِّك منى ، أولأَشكُوَنَّك إلى رسول الله . .

« قلت : ما أنا بفاعل .

« فذهب عنى منطلقاً إلى النبى عليه السلام ، وانطلقتُ وراءه . .

« فجاء ناس من « أسْلَم » فقالوا : يرحم الله أبابكر . . فى أى شىء يستعدى عليك الرسول ، وهو الذى قال لك ماقال . . ؟

« فقلتُ لهم : اسكتوا ، هذا أبوبكر . . . هذا الذى قال الله عنه – ثانىَ اثنَيْن إذْ هُما فى الغار – إيّاكم لا يلتفت فيراكم تنصرونى عليه فيغضب ، فيغضب رسول الله لغضَبه ، فيغضب الله لغضبهما ، فتَهلِك ربيعة . .

« وانطلقتُ وراء أبى بكر حتى أتى الرسولَ فحدَّثه بما كان . .

« فرفع إلىَّ رسول الله رأسه وقال : ياربيعة ، مالكَ والصدِّيق . . ؟

قلتُ : يارسول الله . إنه قال لى كلمة كَرِهْتُها ثم طلب إلىَّ أن أردَّها

عليه لتكون قِصاصاً فأبيت . .

« فقال الرسول : أحسنْتَ يارِبيعة ، لاتردَّها عليه ، ولكن قل : غَفَر الله لك يا أبا بكر . .

« فقلتُ . غَفر الله لك يا أبا بكر . .

« فولىَّ أبوبكر وهو يبكى » . . . . . ! !

والآن ، فلننظر . .

إنها كلمة واحدة ندَّتْ عن لسانه فَلْتة . . .

وهى كلمة لا يمكن أن تكون من فُحْش القول أبداً ؛ لأن أخلاقه لم تكن تسمح له بهذا ، ولم يُؤثَر عنه حتى فى الجاهلية شيء من هذا .

هى كلمة هيِّنة ، ولكنها أصابت من ربيعة مَوْجعاً . . . فإذا أبوبكر يُزَلْزَلُ من أجلها ، ويأبى إلا القِصاص عليها مع أنه يومئذ كان الرجل الثانى فى الإسلام بعد رسول الله .

ولكنْ لم لا يصنع ما صنع ، وهو يرى الرجل الأول نفسه . . رسول الله الكريم ، يقف الموقف نفسه وينهج النَّهْج نفسه . . وكَرَ رجُلا فى صدره وهو يُسوِّى صفوف المقاتلين فى إحدى الغزوات ، حتى إذا رأى الوكزَة قد آلمتْه ، يكشف عن صدره ، من فَوره ، ويُصر على أن يَكزَهُ وكْزَةً مِثْلَها . . . ؟ ! !

ويروى لنا « أبو الدَّرْداء » نبأً شبيهاً بهذا ، فيقول :

– « كنتُ جالساً عند رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ أقبل أبوبكر آخذاً بطرف ثوبه حتى أبْدَى عن رُكبتيه ، وقال : يارسول الله ، إنه كان بينى وبين عمر بن الخطاب شيء فأسرعتُ إليه نادماً وسألْتُهُ أن يغفر لى فأبى علَىَّ . .

« فقال له الرسول : يغفر الله لك يا أبا بكر . .

« ثم إن عمر ندم ؛ فأتى منزل أبى بكر فلم يَجده . . ثم أتى النبىّ صلى الله عليه وسلم وقال : يارسول الله أنا كنتُ أظْلَم . . يارسول الله : أنا كنت أظلَم . .

« فقال الرسول : إن الله بعثنى إليكم ، فقلتُم كَذَبت . . وقال أبو بكر : صدَقْت . . وَاسانى بنفسه ، وماله ؛ فهل أنتم تاركون لى صاحبى . . ؟ فهل أنتم تاركون لى صاحبى . . ؟ »

إنه حين تنِدُّ منه كلمة عابرة لعمر ، أو لربيعة الأسلمى لا يقول لنفسه . لابأس ، وسيغفرها الله لأبى بكر ، صاحب كل جليل من المواقف . . وباذلِ كل عظيم من التضحيات . . لأن ما أنعم الله به عليه من التوفيق ورفيع الخِصال لا يبتَعِثُ فى نفسه الزَّهْو ، بل يُطالبه بالشكر ويحْثُّه إلى التواضع والعِرفان . .

* * *

هكذا كان جَوْهَر علاقته بالناس جميعاً قبل الخلافة وبعدها .

ليس خيراً منهم . .

ولكنه واحد لا تميزه عنهم سوى فضائله الباهرة ، وعظمته السَّامقة . . ! !